

أهل البيت (ع) في آثار أبي العلاء المعري

الدكتور جعفر دلشاد
عضو الهيئة العلمية
قسم اللغة العربية - جامعة اصفهان

عاش أبو العلاء في زمن كان للعلماء والأدباء مكانة مرموقة، فنبت بين هؤلاء بما اكتنزه من العلوم، وبما قدمه من آثار أدبية قيّمة، وخير شاهد لهذا الادّعاء ما قاله خليل مردم بك: «لو لم يوجد أبو العلاء المعري، أو لو وُجد ومات صغيراً لما قام مقامه أحد، ولبقى مكانه في ديوان الأدب العربي خالياً إلى الآن، وإلى ما لا يمكن تحديده في ما يأتي من الزّمان. والأدباء من هذا النوع قليل من كلّ أمة، ينفس الدهر بهم على البشر، ولا يوجد بواحد منهم إلا نادراً في مئات السنين»^(١).

من اللازم أن نضع نصب أعيننا حياة هذه الشخصية العظيمة في فترتين منفصلتين، فالفترة الأولى تمتد حتى الثالثة والأربعين من عمره؛ والفترة الثانية تبدأ بها وتنتهي في السادسة والثمانين من عمره المعطاء، حيث توافيه المنية.

والمحاولة في هذه الدراسة هي معرفة عقيدة أبي العلاء تجاه أهل البيت (عليهم السلام) من خلال رسالة الغفران، وكيف يتطرق إلى هذه النخبة المنتجة من آل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعترته الطاهرة، وهل لهؤلاء منزلة وشأن من رؤيته الخاصة؟

الفاحص المدقق في هذه الآراء قد يصل إلى هذه النتيجة أن حياة أبي العلاء يمكن أن توضع في إطارين متميزين، الإطار الأول حياته في زمن الشباب وحتى يصل إلى سن الأربعين أو يزيد بقليل. والإطار الثاني: هو حياته بعد هذه الفترة وحتى وفاته، وهو في سن السادسة والثمانين من العمر.

أبو العلاء المعري في سطور:

أبو العلاء المعري من الشخصيات الفذة التي قلّما نجد نظيرها في عالم الأدب والشعر، ولد عام ٣٦٣ هجرية، وكانت وفاته عام ٤٤٩ هجرية. وقد جاءت الآراء متضاربة في عقيدة أبي العلاء، فالبعض جعله موحداً لا يشرك برّب العالمين، والبعض الآخر اتّهمه بالكفر ولكن

«كان فيها (أي معرة النعمان) رجل اسمه أبو العلاء المعري، أعمى، وهو رئيسها، وكان واسع الثراء، وعنده كثير من العبيد والخدم وكان أهل البلد كله خدم له، أما هو فقد تزهد، فلبس الخشن، واعتكف في البيت، وكان قوته نصف مَنْ من خبز الشعير، لا يأكل غيره وقد سمعت أن باب قصره مفتوح دائماً، وأن نوابه وملازميه يدبرون أمر المدينة، ولا يرجعون إليه إلا في الأمور الهامة؛ وهو لا يمنع نعمته أحداً، يصوم الدهر ويقوم الليل، ولا يشغل نفسه مطلقاً بأمر دنيوي.

يحيط به ماينوف على المائتي تلميذ جاءوا من مختلف الأصقاع لحضور محاضراته في الأدب والشعر»^(٦).

أما طه حسين فأنه يصف أبا العلاء في مرحلته الثانية من حياته وصفاً دقيقاً غير مبالغ فيما يقول: «هرم أبو العلاء وأصابته الشيخوخة ولكننا لا نعرف أنها أضعفت ملكة من ملكاته العقلية والخلقية. وإنما قضى الرجل حياته ثابت النفس، راجح الحلم، مصيب الفكر، قوي العقل، صادق الذوق، معتدل المزاج إلى أن أصابه المرض الذي مات فيه»^(٧).

ففي هذه المرحلة بالذات يتجه إلى تأليف كتابه القيم «رسالة الغفران» كأنه بعمله هذا يريد رجاء ربه، ويطلب العفو والمغفرة لما فرط من القول في عهد الشباب.

فالكاتب هذا فضلاً عن أنه موسوعة في الأدب والأدباء، وفي اللغة والنحاة، إلا أنه وضع على شكل مشاهد من يوم القيامة، وأن أبا العلاء يصور هذه المشاهد والمواقف حسب ما يراه، ويقف مع شخصيات وأدباء عاشوا في هذه الدنيا، سواء في العصر الجاهلي أو الإسلامي. يطرح فيه ما لديه من قدرة ابداع واطلاع ومعرفة في مجالات شتى.

فالذي يهمنا من هذه الدراسة هو موقف أبي العلاء المعري من الشفاعة والتشفع؟ ومن هم هؤلاء الذين يتشفع بهم المعري الشيخ، وهل ينحاز لفئة في عمله هذا

فحياته في المرحلة الاولى كانت تمتاز بالاقبال على المعرفة والاطلاع على الأدب والأدباء والمرحلة الثانية كانت تقتصر على العزلة والاعتكاف، والتأمل واقبال الادباء عليه.

فعن المرحلة الاولى من حياته قالوا عنه الكثير. حتى انه اتهم بالزندقة لما كان يبديه من تشكيك في الأمور، وخير مثال وشاهد على ذلك ما جاء في كتاب نكلسن عن عقيدة أبي العلاء المعري ما هذا نصه:

«واتهم أبو العتاهية بالزندقة على نحو ما اتهم به أبو العلاء المعري والآخرون الذين أهملوا تعاليم الاسلام الايجابية من أجل فلسفة أخلاقية قائمة على التجربة والتفكير»^(٨).

والمؤلف نفسه يشير في مكان آخر من نفس الكتاب: أن أبا العلاء حبس نفسه عندما عاد من بغداد في بيته وأصبح نباتياً ومارس مظاهر الزهد الاخروي وأمضى بقية حياته الطويلة في عزلة نسبية^(٩).

وفي المرحلة الثانية، وأبو العلاء يتطرق في لزومياته الى هذه الفترة بالذات، وكذا الحالة التي هو عليها بقوله^(١٠):

أراني في الثلاثة من سجون

فلا تسأل عن الخبر النبيل

لسفندي ناظري ولزوم بيتي

وكون النفس في الجسد الخبيث

ونجد «نكلسن» في موضع آخر من كتابه يصرح

عن عقيدة أبي العلاء المعري بقوله:

«كان أبو العلاء موحداً ثابتاً في عقيدته، ولكن اعتقاده بالله، على ما يبدو، لم يعد فكرة ان كل الاشياء محكومة بقضاء لاينثني عن مرامه ولايمكن لاحد ان يسبر غور غوامضه ولا مهرب من سلطانه الواحد الاحد»^(١١).

ومما ورد في «السفرنامه» لناصر خسرو عندما زار معرة النعمان حوالي سنة ٤٣٩ للهجرة وأبو العلاء فيها:

دون أخرى؟

أهل البيت (ع) في رسالة الغفران:

قبل أن نستعرض كتاب «رسالة الغفران» لابد من الإشارة إلى أن أبا العلاء في المرحلة الثانية من عمره (بين الأربعين والثمانين) قد صنف كتابين قيمين هامين: الأول كتاب الفصول والغايات والثاني: رسالة الغفران.

فالكتاب الأول يختص بمدح الله تعالى وتمجيده فهو يحتوي على مواعظ وارشاد. فقد جاء الكتاب هذا بأسلوب انفراد به الكتاب، حتى ان بعض أعدائه وحساده اتهموه بأنه أراد معارضة القرآن بكتابه هذا. فالذي يتصفح هذا الكتاب يتبين له الحق، ويرى ان الكتاب بأجمعه في الله تعالى جل شأنه، ووصفه بما يستحقه، بالإضافة إلى مجموعة من المواعظ والعظات. فالذي يريد معارضة القرآن لابد ان يتخذ نهجاً آخر.

فلنستمع إلى الباحث المعاصر الاستاذ محمود حسن زناتي الذي قام بتحقيق هذا الكتاب. فقدم بعمله هذا خدمة لرواد الأدب حيث يقول:

«... والغرض الذي حدا بأبي العلاء إلى انشاء هذا الكتاب بثه للطلبة ما وعاد صدره من نوادر العلم وغرائب، وقد تخير لذلك أحسن مظهر يظهر فيه وهو «تمجيد الله والمواعظ» ليكون ذلك أقرب إلى النفوس وفيه مثوبة وقربى»^(٨).

أما القول بأنه قصد به مجازاة القرآن الكريم أو معارضته فذلك من قول حساده، وكيف يريد ذلك وهو يمجّد الله فيه أحسن تمجيد وأروع، ويقر له بالعبودية والعجز!

على ان في الكتاب نفسه ما يدحض هذه المفتريات كلها حيث يقول: «علم ربنا ما علم، أتني ألفتُ الكلم، أملّ رضاه المسلم، وأتقي سخطه المؤلم، فهب لي ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الغراب»^(٩).

أما الكتاب الثاني «رسالة الغفران» فقد صور أبو العلاء المعري يوم الحساب وكيف أن الناس حشروا فيه. وكيف أنه يلتقي بمجموعة من الأدباء والشعراء، يناقشهم فيه آراءهم. في قضايا أدبية وغيرها. وأما ما يهمننا في هذه الدراسة هو موضوع الشفاعة عند أبي العلاء المعري وكيف يتشفع بالنبي وبالعترة الطاهرة من أهل بيته عليهم السلام.

فالكتاب فضلاً عن هذا، فيه علم جم، من شعر ورواية، ونقد، ومقابلات، وتاريخ، ومعرفة بالاماكن والاشخاص، ومعرفة بالقرآن وتفسيره، واطلاع واسع على الروايات والأحاديث النبوية، وغيرها. وهيمنة على اللغة وما يتصل بها، والتفات خاص إلى الفرق والاديان، وما خفى من حياة بعض العظماء.

مما جاء في رسالة الغفران: (١٠)

...آه لمصرع «الاعشى ميمون» وكم أعمل من مطية أمون! ولقد وودت أنه ما صدته قريرش لما توجه إلى النبي عليه السلام وانما ذكرته الساعة:

وشمول تحسب العين، اذا

صُفِّقَتْ جندعها نور الذُّبُعِ

مثل ريح المسك زاك ريحها

صَبَّهَا السَّاقِي اذا قيل: تَوْحُ

إلى آخر الابيات وهي ثمانية، ثم يستطرد أبو العلاء في كلامه قائلاً:

ولو أنه أسلم، لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس. فينشدنا غريب الأوزان، مما نظم في دار الأحزان... فيهتف هاتف: أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر؟ فيقول الشيخ: نعم حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم، يتوارثون ذلك كابراً عن كابر... ان هذا الشعر «لميمون بن قيس ابن جندل»...

فيقول الهاتف: أنا ذلك الرجل، من الله علي بعد ما صرت من جهنم على شفير، ويشت من المغفرة والتكفير... فيقول: أخبرني كيف كان خلاصك من النار.

وسلامتك من قبيح الشنار؟

فيقول: سجننتي الزبانية التي سقر، فرأيت رجلاً في عرصات القيامة يتلألأوجهه تلألؤ القمر، والناس يهتفون به من كل أوب: يا محمد يا محمد، الشفاعة الشفاعة! نمت بكذا ونمت بكذا. فصرخت في أيدي الزبانية: يا محمد أغثني فان لي بك حرمة! فقال: يا علي بادره فانظر ما حرمت! فجاءني علي بن أبي طالب، صلوات الله عليه، وأنا أعتل كي ألقى في الدرك الأسفل من النار، فزجرهم عني، وقال: ما حرمتك؟ فقلت: أنا القاتل:

ألا أيُّ هذا السَّائلي أين يَمَّمَت

فانَّ لها في أهل يثرب موعداً^(١١)

إلى آخر القصيدة وهي تسعة أبيات، ثم يصف لنا أبو العلاء الموقف بقوله:

ويقول «الأعشى» قلت لعلي: وقد كنت أومن بالله وبالحساب وأصدق بالبعث وأنا في الجاهلية الجاهلاء، فمن ذلك قلتي:

فما أَيْبَلِي على هيكَل

بناه وصلَّب فيه وصاراً^(١٢)

إلى آخر الأبيات وهي ثلاثة، ويستمر في وصفه قائلاً:

فذهب علي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذا «أعشى قيس» قد روى مدحه فيك، وشهد أنك نبي مرسل، فقال: هلا جاءني في الدار السابقة؟ فقال: علي: قد جاء، ولكن صدته قریش وحبه للخمر، فشفع لي، فأدخلت الجنة على أن لا أشرب فيها خمرًا؛ فقررت عيناى بذلك، وإن لي منادح في العسل وماء الحيوان، وكذلك من لم يتب من الخمر في الدار الساخرة، لم يسقها في الآخرة^(١٣)

ونجد أبا العلاء في مسرحيته هذه، مسرحية القيامة التي صورها لنفسه، وأظهر فيها ما يَكُن من اعتقاد تجاه الشخصيات التي ورد ذكرها فيها، تجده يشير بصراحة تامة إلى أن من قاتل علياً يحاسب حساباً شديداً. لنقرأ

هذه العبارات معاً من رسالة الغفران:

«... فيقول: أيكم تميم بن أبي؟ فيقول رجل منهم: ها أنا ذا. فيقول أخبرني عن قولك:

يادارَ سَلَمَى خَلَاء لا أَكَلَفُهَا

إلا المَرانةَ حتَّى تسأمَ الدنيا

ما أردت بالمرانة؟ فقد قيل: أنك أردت اسم امرأة، وقيل: هي اسم ناقة، وقيل: العادة.

فيقول تميم: والله ما دخلت من باب الفردوس ومعني كلمة من الشعر ولا الرجز، وذلك أني حوسبت حساباً شديداً، وقيل لي: كنت فيمن قاتل علي بن أبي طالب»^(١٤)

لعل أبا العلاء المعري له رأي في هذا، وهو أن من قاتل علياً ﷺ فانه يحاسب حساباً عسيراً، ولربما رأى أن علياً ﷺ الخليفة الرابع بعد رسول الله ﷺ وأنه قد بويع من قبل المسلمين فلا بد أن تكون له زعامة الأمة الإسلامية جمعاء، ومن تخلف عن هذا الأمر فانه قد شق عصا المسلمين، فكيف بمن يدخل في حرب مع خليفة الرسول الكريم ﷺ، ولهذا يصور لنا أبو العلاء الموقف في يوم الحشر في الذي يقف في وجه علي ﷺ فلا بد من أن يواجه حساباً شديداً لموقفه الساخط من علي ﷺ.

وفي مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة نرى أبا العلاء يصور لنا مكانة حمزة بن عبد المطلب عم الرسول (ص) وكيف أنه ذو منزلة وشأن، هو والصحاب في يوم الحشر، وكيف أن حمزة سيد الشهداء ﷺ يرشده إلى علي بن أبي طالب ﷺ ليجعله شقيقاً له:

«فيئست مما عنده، فجعلت أتخلل العالم، فإذا أنا برجل عليه نور يتلألأ، وحواليه رجال تأتلق منهم أنوار. فقلت: من هذا الرجل؟ فقيل: هذا حمزة بن عبد المطلب صريع وحشي، وهؤلاء الذين حوله من استشهد من المسلمين في أحد...»

وجئت حتى وليت منه فناديت: يا سيد الشهداء، يا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، يا ابن عبد المطلب! فلما أقبل علي بوجهه أنشدته الأبيات. فقال: ويحك! أفي مثل هذا الموطن تجيئني بالمدح؟ أما سمعت الآية: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ»^(١٥) فقلت: بلى قد سمعتها، وسمعت ما بعدها: «وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضَاجِكُهُ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَوُجُودُهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ»^(١٦).

فقال: اني لا أقدر على ما تطلب، ولكنني أنفذ معك توراً، (أي رسولاً) إلى ابن أخي علي بن أبي طالب، ليخاطب النبي، صلى الله عليه وسلم، في أمرك فبعث معي رجلاً، فلما قص قصتي على أمير المؤمنين، قال: أين بينتك؟ يعني صحيفة حسناتي^(١٧).

لعل في اعتقاد أبي العلاء المعري أن علياً عليه السلام أعلى شأنًا ومنزلة من عمه حمزة سيد الشهداء، فإذا كان حمزة قد لقب بسيد الشهداء، وهذا ما ذكرته كتب السير والتاريخ، فإن علياً عليه السلام قد لقب بأمير المؤمنين.

وبعد هذا الموقف، نجد أن المعري في رسالة الغفران يشير إلى عترة الرسول ﷺ وهو في أحلك الأحوال وأشدّها خوفاً من عذاب الملك الجبار، وكيف أنه في دار الدنيا كان يصفهم بالآخيار الطيبين، ثم يستطرد في كلامه مشيراً إلى العترة ومن أفضل هذه العترة الطيبة، الزهراء عليها السلام، وأقربها منزلة لدى الرسول العظيم ﷺ، ويستشفع بها، ويجعلها وسيلة بينه وبين الرسول ﷺ حيث يقول:

«...فطُفْتُ عَلَى الْعَتَرَةِ الْمُنْتَجِبِينَ فَقُلْتُ: أَنِي كُنْتُ فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ إِذَا كَتَبْتَ كِتَاباً وَفَرَّغْتَ مِنْهُ: قُلْتُ فِي آخِرِهِ: وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى (سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ) خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى عَتَرَتِهِ الْآخِيَارِ الطَّيِّبِينَ. وَهَذِهِ حَرَمَةٌ لِي وَوَسِيلَةٌ، فَقَالُوا: مَا نَصْنَعُ بِكَ؟ فَقُلْتُ: إِنْ مَوْلَاتُنَا فَاطِمَةُ، عَلَيْهَا السَّلَامُ قَدْ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ مَذْهَباً، وَأَنَّا تَخْرُجُ فِي كُلِّ حِينٍ مَقْدَارُهُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً مِنَ الدُّنْيَا الْغَانِيَةِ فَتَسْلَمُ عَلَى أَبِيهَا،

وهو قائم لشهادة القضاء، ثم تعود إلى مستقرها من الجنان، فإذا هي خرجت كالعادة، فاسألوا في أمري بأجمعكم، فلعلها تسأل أباهما في. فلما حان خروجها ونادى الهاتف: ان غصوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد، صلى الله عليه وسلم، اجتمع من آل أبي طالب خلق كثير، من ذكور و إناث، ممن لم يشرب خمراً، ولا عرف قط منكراً، فلحقوها في بعض السبيل، فلما رأتهم قالت: ما بال هذه الزرافة؟ ألكم حال تذكر؟ فقالوا: نحن بخير، أنا نلتذُّ بتحف أهل الجنة، غير أننا محبوسون للكلمة السابقة، ولا نريد أن نتسرّع إلى الجنة من قبل الميقات، إذ كنا آمنين ناعمين بدليل قوله: ﴿أَنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَمِتَ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ. لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ، وَتَلْقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(١٨).

وكان فيهم علي بن الحسين وابناه محمد وزيد، وغيرهم من الأبرار الصالحين، ومع فاطمة، عليها السلام، امرأة أخرى تجري مجراها في الشرف والجلالة، فقيل: من هذه؟ فقيل: خديجة ابنة خويلد ابن أسد بن عبد العزى، ومعها شباب على أفراس من نور، فقيل: من هؤلاء؟ فقيل: عبد الله، والقاسم، والطيب، والطاهر، وإبراهيم بنو محمد، صلى الله عليه وسلم^(١٩).

ففي النص السابق، أمور تجدر بنا أن نقف عندها ونتأمل فيها، منها:

١ - اقتران الصلاة على الرسول الكريم ﷺ بالصلاة على العترة الطاهرة وهم الخيرة من العباد والطيبون من المؤمنين، ولماذا هذا الاقتران؟ وهل أن أبا العلاء قد التفت إلى قول الرسول الأكرم ﷺ حيث يقول: لاتصلوا على الصلاة البتراء. فسئل وما هي الصلاة البتراء يا رسول الله؟ فأجاب عليه آلاف التحية والسلام: أن تصلوا علي ولا تصلوا على آلي.

٢ - جعل أبو العلاء العترة الطيبة حرمة له ووسيلة

لما لهم من مكانة ومنزلة لدى الرسول العظيم ﷺ.

٣ - المبادرة والاشارة الى أفضل هؤلاء العترة المباركة، بقوله: مولاتنا فاطمة، عليها السلام، قد دخلت الجنة مذ دهر. فدخلوها محقق لا شبهة فيه ولا ريب. لماذا فاطمة دون النساء؟ لعل أبا العلاء ذلك المطالع النحرير قد قرأ مناقب الزهراء ﷺ وكيف أن الرسول أباهما يشيد بمكانتها عندما يقول لها: فداها أبوها. أو أنه قد عثر على هذا القول: لولا علي ﷺ لما كان لفاطمة كفوء.

أو أنه وجد في الصحاح قول الرسول الامين ﷺ حيث يقول: فاطمة بضعة مني فمن آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله (٢٠). فقرن صلى الله عليه وآله وسلم آذاها بأذاه، والقرآن الكريم يصرح بهذا الشأن: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١).

أو أنه وجد في بعض كتب السير أنه ﷺ كان يقبل يد الزهراء ﷺ في بعض المناسبات؛ منها قبل سفره وبعد العودة منه. أم أن أبا العلاء قد اطمأن الى الرواية التي تذكر أن الرسول الكريم ﷺ قبيل وفاته ولمدة تسعة أشهر كان يقف على باب فاطمة وهو في طريقه الى المسجد لاداء الفريضة واضعاً يديه على الباب تالياً قول الله العزيز: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٢٢).

أم انه اعتمد على الروايات الواردة في تفسير قوله تعالى في الكتاب العزيز: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٢٣).

أم هل أنه تأمل في سورة الكوثر وتفسيرها، وقد أقر معظم المفسرين أنها نزلت في فاطمة بنت رسول الله ﷺ. وأن المراد بالكوثر هي وذريتها، وأن مبغض الرسول هو الابتر. وخير مصداق للاية الشريفة وتحققها في يومنا هذا أن أبناء الزهراء ﷺ في العالم

حالياً عددهم لا يعد ولا يحصى من شرق العالم الى غربه، وخاصة في البقاع الاسلامية، وأنهم معروفون بنسبهم، ويشهد لهم من يعيش معهم بهذه المنقبة السامية.

أو لعل أبا العلاء المعري قد قرأ أحاديث الرسول الكريم ﷺ حين يقول: مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك (٢٤). أو الحديث الآخر: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف» (٢٥).

أو لعله قد قرأ عليه تفسير الآية الشريفة: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (٢٦).

والقربى هم أهل بيت الرسالة عليهم آلاف التحية والثناء، وأن مودة أهل البيت ﷺ واجبة بمقتضى الآية الكريمة، وكل من وجبت مودته وجبت طاعته. ولعل من الاقوال المتواترة لدى المسلمين عامة في شأن الزهراء ﷺ هو هذا القول: «أن غصوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد» صلى الله عليه وآله وسلم. ولم يفت أبو العلاء أن يشير الى هذه المنقبة وكيف أن سيدة النساء أختصت بهذه الميزة وانفردت بها دون غيرها من نساء العالمين حتى والدتها السيدة المكرمة خديجة ﷺ. فالتأفف لهذا القول هو من قبل رب العظمة والجلالة، ولعله جبرائيل ﷺ. ثم يتطرق الى آل أبي طالب عليهم السلام، وهم العترة الطاهرة الذين زكوا أنفسهم في دار الغرور، وقد وصفهم بأنهم لم يذوقوا الخمر مطلقاً في دار الدنيا، وأنهم منزهون من الرجز وأنهم حقيقون بأن يكونوا من سادات الجنة وروادها. وكيف ان الآيات القرآنية تبشر هؤلاء الفئة المنتجة الطاهرة بما أكتسبوه من حسنات في الدار الفانية، وأدخروا ما استطاعوا ليوم «لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (٢٧).

مما يلاحظ في هذا النص أن أبا العلاء لم يتطرق في رسالته هذه الى نساء النبي ﷺ إطلاقاً حتى عائشة،

رجل سأل فلان وفلان^(٢٨) - وسمت جماعة من الائمة الطاهرين - فقال: حتى ينظر في عمله. فسأل عن عملي فوجد في الديوان الاعظم وقد ختم بالتوبة، فشفع لي. فأذن لي في الدّخول»^(٢٩).

ماذا يقصد أبو العلاء في النصّ الأنف الذكر بالائمة الطاهرين؟ هل يقصد بذلك العترة المنتجة؟ الذين مرّ ذكرهم في الفقرات السابقة وأنهم المنزهون من الرّجس وأنهم قادة الأمة وساداتها وأن الرسول ﷺ لم يعبأ بأحد سوى العترة، ولم يلتفت الى سواهم، وأنهم قرّة عينه في الدنيا وفي العقبى؟

لنقرأ معاً فقرة أخرى من رسالته:

ولما انصرف الزهراء، عليها السلام، تعلق بركاب ابراهيم، صلى الله عليه. فلما خلصت من تلك الطموش، قيل لي: هذا الصراط فاعبر عليه، فوجدته خالياً لا عريب عنده فبلوت نفسي في العبور، فوجدتني لا أستمسك. فقالت الزهراء، صلى الله عليها، لجارية من جواربها: فلانٌ أجيزيه، فجعلت تمارسني وأنا أتساقط عن يميني وشمال... فلما جرت، قالت الزهراء، عليها السلام، قد وهبنا لك الجارية فخذها كي تخدمك في الجنان^(٣٠).

فالسؤال الذي يطرح نفسه هو هل أشار أبو العلاء المعري في رسالة الغفران الى أزواج النبي ﷺ أو الى الصحابة الكرام؟

فالجواب انه لم يتطرق مطلقاً الى أزواج النبي الكريم ﷺ، أما بالنسبة الى الصحابة فانه قد تطرق اليهم في هذه الرسالة بقوله:

«أليس الصحابة، عليهم رضوان الله، كلهم كان على ضلال، ثم تداركهم المقتدر ذو الجلال؟ وفي بعض الروايات ان عمر بن الخطاب خرج من بيته يريد مجمعا كانوا يجتمعون فيها للقمار، فلم يجد فيه أحداً فقال: لأذهبن الى الخمار، لعلي أجد عنده خمراً. فلم يجد عنده شيئاً. فقال: لأذهبن ولأسلمن»^(٣١).

من الأفضل أن يترك التعليق على هذا النص للقارئ

ولعل هذا الأمر ما يثير التساؤل ويوجب الدهشة؟ فالذي عليه عامة المسلمين من اخواننا أهل السنة أن عائشة هي أم المؤمنين فلماذا تغافل أبو العلاء عن ذكرها؟ أم هل انه كان يعتقد انها حاربت الامام علياً، عليه السلام، ومما ذكر أنفاً ان من قاتل علياً عليه السلام فسوف يحاسب حساباً شديداً؟

اذن لنرى من هم العترة من وجهة نظر أبي العلاء؟ فالزهراء عليها السلام أولاً. وهي في مقدمة من ذكرهم من العترة، بذلك الوصف الرائع، حين تدخل ساحة القيامة وبذلك الأبهة الرائعة التي لا تجد لها نظيراً لسائر النساء الطاهرات؟ ثم يذكر علي بن الحسين، زين العابدين وسيد الساجدين عليه السلام، ثم ابنه محمد بن الباقر عليه السلام، وزيد الشهيد، وآخرين.

ففي هذا النص نرى أن أبا العلاء قد جعل منزلة خديجة عليها السلام بعد منزلة ابنتها فاطمة الزهراء عليها السلام ثم جعل ابنه رسول الله ﷺ بعدهما منزلة وشأناً.

وبعد مشاهد متعددة من يوم الحشر وتوسله بالنبي الكريم ﷺ وعلي عليه السلام والزهراء عليها السلام والعترة الطاهرة يصور لنا أبو العلاء كيف أن الله جل وعلا قد قبل هذا التشفع بهم، فغفر له ذنوبه وقبلت توبته بواسطة هؤلاء الأركياء النجباء.

بعد هذا كله يستمر أبو العلاء في وصف المشاهد المتتالية في ذلك اليوم العسير بقوله:

«فكانت تلك الجماعة التي سألت: هذا ولي من أوليائنا، قد صحت توبته، ولا ريب أنه من أهل الجنة، وقد توسل بنا إليك، صلى الله عليك، في أن يراح من أهوال الموقف، ويصير الى الجنة فيتعجل الفوز. فقالت لاختها ابراهيم، صلى الله عليه: دونك الرجل. فقال لي: تعلق بركابي. وجعلت تلك الخيل تخلل الناس وتنكشف لها الامم والاجيال. فلما عظم الزحام طارت في الهواء، وأنا متعلق بالركاب، فوقفت عند محمد، صلى الله عليه وسلم، فقال: من هذا الاتاوي؟ (أي الغريب) فقالت له: هذا

الكريم.

هناك تساؤل وهو أن أبا العلاء لماذا يتجه بعد رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ولم يتجه إلى الخلفاء الراشدين من بعده بمن فيهم علي عليه السلام وإنما يضع الامام علياً عليه السلام والزهراء عليه السلام شفعا عند الله ورسوله؟

فهل ان الجواب لهذا التساؤل هو ان أبا العلاء كان يعتقد ان الثلاثة الأول من هؤلاء كانوا قد جاءوا إلى الحكم من قبل الناس، فهم رجال حكومة ثم رجال دين؟ وبعبارة أخرى انهم لم ينتخبوا من قبل رسول الله ﷺ؟

أو أن أبا العلاء قد شغل فكره قول الرسول ﷺ: من كنت مولاه فهذا علي مولاه؟

أو أنه قد راجع مجموعة من التفاسير التي اشتهرت في عهده ورأى الآيات النازلة في شأن علي عليه السلام؟

أم أنه راجع كتب الصحاح فعثر على فضائل علي عليه السلام منها: أفضلكم علي، أتناكم علي، وإلى غيرها من الأحاديث الكثيرة.

أم أنه تصفح كتب التاريخ فوجد الامام علياً عليه السلام أشجعهم في ساحة الوغى، وأذهبهم عن دين الله، وإلى غيرها من الصفات الحميدة.

أو هل أن أبا العلاء وجد الامام علياً قد زهد عن الدنيا ولا يريد إلا وجه الله ورضاه عندما أقبل الآخرون عليها؟

وهل ان الزهراء عليه السلام تمتاز بمكانة خاصة من بين النساء، من مهاجرين وأنصار، ومن نساء النبي ﷺ أنفسهن، وخاصة خديجة عليها السلام التي ضحت بالنفس والنفيس لنشر الدعوة الاسلامية؟

أم هل أنه قد قرأ هذا الحديث النبوي الشريف: لولا علي لما كان لفاطمة كفوء.

أم هل سمع حديث الكساء من أحد حيث يقول الرسول الكريم ﷺ عن صاحب العزة والجبروت: والله

ما خلقت سماء مبنية ولا أرضاً مدحية ولا قمراً منيراً... الا لمحبة هؤلاء الخمس الذين هم تحت (هذا) الكساء... أم أن أبا العلاء قد أبهرته آيات من سورة المباهلة حين يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٣٢).

وقد جعل الله علياً في الآية بمثابة نفس الرسول. ونساءنا، الزهراء عليه السلام، فهو من بين الرجال أفضل. وهي من بين النساء فضلى؟

أم هل تأمل في خطبة الزهراء عليه السلام عندما ألقته في مجلس أبي بكر وهي تحتج بحجج لا تشوبها شبهة ولا شك، وتبين الحق وتظهر بالادلة ما كان عليه القوم قبل رسول الله وكيف أصبحوا؟

وبعد هذا كله نجد أن أبا العلاء لم يصرح بالجواب لهذه التساؤلات ولم يظهر السبب في تشغعه بعلي بن أبي طالب عليه السلام وبالزهراء عليه السلام.

ولكن هناك مثل معروف، رُبَّ كناية أبلغ من تصريح، فالذي يُستنبط من هذه التصورات، وهو في أشد الحاجة إلى من يتوسط لديه ويتشفع له في ذلك الموقف الحرج، والخرج جداً، وكيفية لجوئه إلى هؤلاء يدل على مدى اعتقاده بهم، وحبهم وإجلاله إياهم، وأنهم الصفوة المختارة، بل صفوة الصفوة. والله اعلم حيث يجعل رسالته.

النتيجة:

يبدو لي أن الدراسة الحقيقية لهذا البعقري يجب أن تركز على الفترة الثانية مع الالتفات إلى الفترة التي سبقتها. ولما كان الامر كذلك، فلا بد من الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة تطرق إليها هذا العالم الجليل في الفترة من حياته، علماً بأن رسالة الغفران قد حررت في هذه الفترة بالذات. ومن خلال هذا البحث الموجز، يمكن ان تُستنتج أمور؛ منها:

أهل البيت (ع) في آثار أبي العلاء المعري

- ١- «سفرنامه» طبعة شيفر، باريس ١٨٨١.
- ٧- طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، المجلد الثالث، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٤، صفحة ٥٣٢.
- ٨- انظر مقدمة الكتاب، تحقيق محمود حسن زناقي، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت ١٩٣٨ م، صفحة «٥».
- ٩- تراجع نفس المصدر، صفحة ٦٢.
- ١٠- لأبي العلاء المعري، شرحها وحققها وفهرسها وقدم لها الدكتور علي شلق، دار القلم، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١، صفحة ٤١ - ٤٤.
- ١١- المصدر نفسه، صفحة ٤٤.
- ١٢- نفس المصدر، صفحة ٤٥.
- ١٣- تراجع نفس المصدر، نفس الصفحة.
- ١٤- نفس المصدر، صفحة ٨٩.
- ١٥- سورة عبس، الآية ٣٧.
- ١٦- سورة عبس، الآيات ٣٨ - ٤٢.
- ١٧- المعري، أبو العلاء، المصدر السابق، صفحة ٩٣ - ٩٤.
- ١٨- سورة الأنبياء، الآيات ١٠١ - ١٠٣.
- ١٩- المعري، أبو العلاء، المصدر السابق، صفحة ٩٧.
- ٢٠- الطبري، محب الدين، ذخائر العقبى، صفحة ٢١.
- ٢١- سورة التوبة، الآية ٦١.
- ٢٢- سورة الأحزاب، الآية ٣٣.
- ٢٣- سورة الدهر، الآية ٨.
- ٢٤- انظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، صفحة ٢٧، وابن حجر، الصواعق المحرقة، صفحة ١٥٢، ١٨٦، ١٨٧ وكذا سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص، صفحة ٣٢٣.
- ٢٥- الألوسي، محمود شكري، مختصر التحفة، الاثني عشرية، صفحة ١٥٢.
- ٢٦- سورة الشورى، الآية ٢٣.
- ٢٧- سورة الشعراء، الآيات ٨٨ - ٨٩.
- ٢٨- لعل الأصح: فلاناً وفلاناً.
- ٢٩- انظر: المصدر السابق، صفحة ٩٧ - ٩٨.
- ٣٠- تراجع المصدر السابق، صفحة ٩٨ - ٩٩.
- ٣١- المعري أبو العلاء، رسالة الغفران، شرحها وحققها وفهرسها وقدم لها الدكتور علي شلق، دار القلم، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١، صفحة ٢٦٦.
- ٣٢- سورة آل عمران، الآية ٦١.
- ٣٣- رسالة الغفران، صفحة ٢٥٦.

١- ان أبا العلاء المعري يتطرق بعد شخصية الرسول الكريم ﷺ الى أشخاص هم أقرب الناس اليه، ويجعلهم شفعاءه لدى الرسول العظيم ﷺ، مثل: حمزة بن عبد المطلب، عمه، وعلي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء.

٢- أبو العلاء يشير الى العترة الطاهرة، وهم أقرباء النبي ﷺ وأحباؤه، كما يذكر بعض الائمة الهداة من أهل بيت الرسالة مثل: زين العابدين، علي بن الحسين، ومحمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق عليهم صلوات الله تعالى وسلامه، والى آخرين من هذه الصفة.

٣- المعري لم يشر الى زوجات النبي ﷺ، بل يكتفي بذكر خديجة سلام الله عليها فقط، ويضعها موضعاً هو أقل درجة من ابنتها الزهراء.

٤- ان أبا العلاء لم يتناول في رسالته هذه أحداً من خلفاء الرسول ﷺ سوى علياً، مشيداً به قائلاً: «وعلي له سابقة، ومحاسن كثيرة رائقة»^(٣٣).

لقد شغف أبو العلاء بحب أهل البيت عليهم السلام، وهو في أشد الحاجة الى الشفاعة عند أهوال يوم القيامة. فهل يمكننا القول انه كان علوي الهوى والعقيدة، محباً لأهل بيته، إلا أنه لم يصرح بهذا الأمر تصريحاً في مصنفاته، وانما جاءت هذه العقيدة جلية من خلال أثره هذا بهذه الكيفية، وهو على علم بما يقول؟ الله أعلم.

الهوامش

- ١- انظر: المهرجان الأثني لأبي المعري، صفحة ٥.
- ٢- تراجع نكلسن، رينولد، تاريخ الأدب العباسي، ترجمة الدكتور صفاء خلوصي، المكتبة الأهلية، بغداد ١٩٦٧ م، ص ٧١.
- ٣- نفس المصدر، ص ٩٣.
- ٤- المعري، أبو العلاء، اللزوميات، دار صادر بيروت، ١٩٦١، ج ١: ٧٢.
- ٥- نكلسن، المصدر السابق، صفحة ٩٥.
- ٦- تراجع: نكلسن، نفس المصدر، صفحة ١٠٤ - ١٠٥، نقلاً عن

أهل البيت (ع) في آثار أبي العلاء المعري

المصادر

- ١- ابن الجوزي، عبد الرحمن. تذكرة خواص الأمة في معرفة اللغة، طهران، ١٢٨٧ هـ ق.
- ٢- الألوسي، محمود شكري، مختصر التحفة الاثني عشرية، طهران، ١٣٦٣.
- ٣- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. تاريخ الخلفاء، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، مؤسسة الثقافة، ١٤١٤ ق. ١٩٩٣ م.
- ٤- الطبري، أحمد بن عبد الله ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، القاهرة، مكتبة القدس ١٣٥٦ هـ ق.
- ٥- العسقلاني، ابن حجر. الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندق، تعليق: سيد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٥ ق. ١٩٦٥ م.
- ٦- المعري، أبو العلاء، اللزوميات، دار صادر، بيروت ١٩٦١ م.
- ٧- المعري، أبو العلاء، رسالة الغفران، شرحها وحققها وفهرسها وقدم لها الدكتور علي شلق، دار القلم، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١ م.
- ٨- المهرجان الالقي لابي العلاء المعري.
- ٩- زناقي، محمود حسن. الفصول والغايات، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت ١٩٣٨ م.
- ١٠- طه حسين. من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الاولى ١٩٧٤ م.
- ١١- ناصر خسرو، سفرنامه، طبعه شيفر، باريس ١٨٨١ م.
- ١٢- نكلسن، رينولد، تاريخ الادب العباسي، ترجمة الدكتور صفاء خلوصي، المكتبة الاهلية في بغداد ١٩٦٧ م.

* * *